صور من التضامن والصراع بين الأندلس النصرية ودول العدوة المغربية (635 ـــ 897 هـ/ 1238 ـــ 1492م)

الدكتور عمر سي عبد القادر، جامعة تلمسان، الجزائر

الدكتور وهراني قـــدور، جامعة تلمسان، الجزائر

ملخص: يتناول هذا المقال صور من التضامن والصراع بين دولة بني نصر في الأندلس ودول بلاد المغرب ونعني بها الدولة الحفصية والزيانية والمرينية ، خاصة وأن دولة بني نصر كانت تعاني من الضغط المسيحي المستمر عندما نشطت حركة الاسترداد ، مما حتم عليها طلب المساعدة والدعم من الدول الإسلامية ، وقد لبت دول بلاد المغرب هذا الطلب رغم أن العلاقات السياسية تخللتها بعض فترات الصراع وسوء التفاهم وهذا بسبب تحكم المصالح الخاصة في العلاقات بين الطرفين.

الكلمات المفتاحية: الأندلس ، بني نصر ، بلاد المغرب ، العلاقات السياسية.

Sections of solidarity and conflict between Bani Nasr in Andalusia and the countries of the Maghreb.

Summary : Abstract: This article deals with the political solidarity and conflict between the state of Bani Nasr in Andalusia and the countries of the Maghreb, namely Hafs, Ziani and Marini country, especially that the State of Bani Nasr was suffering from the constant Christian pressure, when it animated the recovery movement, which necessitated the request for assistance from the Islamic countries. Maghreb countries responded to this request; though the political relations witnessed some periods of conflict and misunderstanding because of the control of personal interests in the relations of the two sides.

Keywords: Beni Nasr - Andalus -States of Maghreb- Political Relations.

مقدمة: لقد كان للعلاقات السياسية دور بارز في ربط الشعوب و الدول و تضامنها خاصة إدا كانت هذه الدول تجمعها الروابط الدينية و المصير المشترك ، رغم ما يتخلل هذه

العلاقات من فترات الصراع وسوء التفاهم ، وهذا ما ينطبق على دول المغرب الإسلامي في فترة ما بعد الدولة الموحدية أو الدولة المؤمنية نسبة الى عبد المؤمن بن علي ، هذه الأخيرة تمكنت من توحيد بلاد المغرب بأقسامه المختلفة من برقة شرقا إلى المحيط الاطلسي والأندلس غربا ، ويرجع الفضل في تأسيس هذه الدولة إلى المهدي بن تومرت ، الذي شن حربا على المرابطين و تمكن من إسقاط عاصمتهم مراكش ، وبعد وفاة ابن تومرت تمت مبايعة عبد المؤمن بن علي الكومي المقرب من ابن تومرت والمعروف بعلمه وحسن سياسته ورجاحة عقله.

وقد عمل عبد المؤمن على توحيد بلاد المغرب بداية بمحاربة المرابطين ثم القضاء على الفتن الداخلية وبعد ان استقرت الأوضاع بالمغرب وجه نظره نحو الأندلس ، وتمكن من فرض سيطرته على الأندلس سنة 556ه ثم توجه نحو الشرق حيث دخل بجاية والمهدية وتونس ، وقد حكم هذه الدولة ثلاث عشرة خليفة أبرزهم عبد المؤمن وابنه يوسف. ونظرا لظهور الثورات الداخلية والمواجهة المستمرة مع النصارى بدأ الضعف يتسرب الى جسم الدولة.

لقد كانت هزيمة العقاب سنة609ه 1212م بداية أفول شمس الإسلام في الأندلس حيث كانت السبب في هلاك الأندلس ، ونظرا لهذه العوامل ظهرت بوادر الانفصال في أقاليم الدولة ، حيث ظهرت دويلات مستقلة تمثلت في دولة بني نصر بالأندلس بقيادة مُحَمَّد ين يوسف بن نصر ، وقد تمكنت هذه الدولة من الحفاض على الوجود الإسلامي في الأندلس لأكثر من قرنين من الزمن.

و في المغرب الأقصى ظهرت الدولة المرينية وفي المغرب الأوسط ظهرت الدولة الزيانية بقيادة يغموراسن بن زيان من بني عبد الواد ، أما في المغرب الأدنى فقد ظهرت دولة بني حفص و التي يرجع نسبهم الى أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي.

لقد تميزت العلاقة بين هذه الدول بالصراع المستمر بسبب اختلاف المصالح والسياسة التوسعية التي انتهجتها ضد بعضها البعض مما أثر على القدرات السياسية و العسكرية لمنطقة المغرب الإسلامي وفي الوقت نفسه كانت بلاد الأندلس تعاني من هجمات النصارى المستمرة في إطار حروب الاسترداد مما نتج عنه سقوط العديد من المدن الأندلسية ، هذه الظروف فرضت على أهل الأندلس طلب المساعدة من إخوانهم في بلاد المغرب ، وعلى هذه الأساس بنيت العلاقات السياسية بين بني نصر في الأندلس و دول بلاد المغرب.

تضامن دول بلاد المغرب مع الأندلس النصرية:

1 التضامن الحفصي النصري:

تعود صلة الحفصيين بالأندلس إلى العهد الموحدي حيث تولى عدد من أفراد الأسرة الحفصية الولاية على بعض المدن الأندلسية ، وكان من أبرزهم أبو سعيد بن أبي حفص عمر الذي تولّى ولاية جيان ثم بلنسية ، أما أبو عمران موسى بن أبي حفص فقد تولى ولاية ألمرية ، ونظرا لضعف الدولة الموحدية عملت دويلات الأندلس أمام الضغط النصراني على كسب عطف الدول الإسلامية خاصة تلك التي ظهرت في بلاد المغرب ، فكانت الاتصالات الأولى بين الأندلسيين والدولة الحفصية سنة 636هـ/1238م بعد أن ضيق العدو على بلنسية اضطر زيان بن مردينش صاحب بلنسية إلى

الاستغاثة بالسلطان الحفصي أبي زكرياء ، فوجه إليه بيعته مع جماعة من أهل بلنسية ومعهم الكاتب الفقيه الشهير أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر ابن الأبّار القضاعي الذي قدم بين يدي السلطان الحفصي قصيدته المشهورة ومطلعها:

ادركْ بخيلكَ خيلَ اللهِ أندلســـــا إنَّ السبـــــيلَ إلىَ منجاتهَا درسَا

وهبْ لها من عزيزِ النصر ما التمستْ فلم يزل منكَ عز النصر ملتمسَا.[1]

فبادر السلطان الحفصي أبو زكرياء إلى إرسال بعض السفن مشحونة بالمال والعتاد إلا أنّ هذا الأسطول الحفصي لم يستطع النزول قرب بلنسية بسبب الحصار المضروب عليها من طرف النصارى فعاد إلى دانية ، وهناك ترك المؤن والعتاد وعاد بالمال إلى تونس وقد بلغت قيمة هذه المساعدات ألف دينار ، لكن هذه المساعدات جاءت متأخرة فقد سقطت المدينة قبل أن تصل إليها.

وبعد ظهور دولة بني نصر تجدد التواصل مع الدولة الحفصية فقد بادر السلطان مُحَمَّد الأول بالولاء والطاعة لبني حفص قبل أن يتخذ من غرناطة عاصمة له ، وعندما تحرك أبو زكرياء إلى تلمسان واستولى عليها سنة 640هـ/1242م سارع مُحَمَّد بن الأحمر إلى كسب ودّ حاكم تونس فأمر بأن تلقى خطبة الجمعة في غرناطة باسم أبي زكرياء الحفصي ، وبالمقابل تلقى مساعدات مالية ، وفي سنة 643هـ/1245م وصلت بيعة إشبيلية وشريش وطريف والمرية وخضعت لسلطة الأمير الحفصي ، فأرسل هذا الأخير أحد أبناء عمومته لإنقاذ إشبيلية وهو أبو فارس بن يونس ورغم المقاومة المستميتة إلا أنه لم يستطع أن يحول دون سقوطها سنة 646هـ/1248م ، [2] لقد تميّز عهد أبي

زكرياء بتقديم الدعم المادي والعسكري لإنقاذ المدن الأندلسية خاصة تلك التي قدمت له الولاء والبيعة ، وقد استمر هذا الدعم إلى غاية وفاة أبي زكرياء سنة 647هـ/1249م.

الا أن هذا التضامن تأثر مع بداية عهد المستنصر الحفصي و ظهر نوع من الصراع بين البلدين خاصة عندما أعلن بعد مُحَمَّد الأول التخلي عن الدعوة للحفصيين وتسمّى بأمير المسلمين من خلال هدا التصرف و هذه القطيعة المؤقتة ويظهر لنا أن ولاء بني الأحمر للدولة الحفصية كان مقرونا بشخص أبي زكرياء ، كما أن هذا الولاء كان وفق مصالح معينة ، اقتضتها ظروف الأندلس وحاجة الدولة إلى المساعدات المالية والعسكرية.

وبداية من سنة 651هـ/1253م انجلى الجمود في العلاقات السياسية بين المستنصر الحفصي ومُحَمَّد الثاني سلطان غرناطة ،وعاد التضامن و التعاون بين البلدين وذلك بسبب لجوء الأمير ابي إسحاق إلى غرناطة بعدما ثار على أخيه المستنصر ، وقد لقي أبو إسحاق رعاية خاصة من السلطان الغرناطي الذي أكرمه وقد شهد وقائع ضدّ النصارى وأبلى بلاء حسنا فاشتهر اسمه ، وهذا ما جعل السلطان الحفصي يبعث بالهدايا مع كبار رجاله إلى بني الأحمر ، من أجل أن يجرد أخاه أبا إسحاق من خطورته ويكفه عنه ويمنعه من الرجوع والقيام بثورة مجدّدا ، وقد استمر الوضع على هذا الحال إلى نهاية عهد المستنصر حيث عاد أبو إسحاق إلى إفريقية وملكها ، [3] وهكذا فإن مكانة الأمير أبي إسحاق استغلها السلطان النصري لخدمة مصالح بلاده.

ثم استمرت العلاقات الطيبة بين غرناطة والدولة الحفصية من خلال تبادل المراسلات كما حصل في عهد السلطان مُحَمَّد الثالث النصري أبي عبد الله المخلوع مع السلطان الحفصي أبي عبد الله مُحَمَّد الواثق بن يحي المستنصر.

إلا أن العلاقات الحسنة بين البلدين لم تتوقف عند هذا الحد بل تعدّت إلى التضامن بين القوى الإسلامية عندما تحالفت الدول النصرانية ضدّ مسلمي غرناطة ، فبادرت الدولة الحفصية إلى المساهمة بأسطول بحري من ست عشرة سفينة ساهمت من خلاله في تمكين المرينيين وبني نصر من تحقيق الانتصار على التحالف النصراني سنة 740هـ/1339م. [4]

وفي عهد السلطان الغرناطي مُحَمَّد الخامس بعث السلطان الحفصي أبو إسحاق إبراهيم الثاني سفيره أبا الحسن البناء إلى مملكة غرناطة لتقديم هدية من الخيول والرقيق وقد استقبل بحفاوة كبيرة من السلطان النصري ، وقد عبر لسان الدين بن الخطيب عن هذا الشعور في رسالة بعث بها باسم السلطان الغني بالله إلى السلطان الحفصي أبي إسحاق يشكره عن تلك الهدية. ويبين عراقة تلك العلاقات بين الدولتين وفضل أهل إفريقية على بلاد الأندلس ويخبره كذلك على الدور الذي تقوم به غرناطة في الدفاع عن أرض الإسلام في الأندلس.

أمّا في عهد السلطان الغرناطي مُحَمَّد السابع فقد ظهر من جديد التحالف النصراني ضدّ مملكة غرناطة مما دفع به إلى طلب المساعدة من دول المغرب ، فكان موقف السلطان الحفصي أبي فارس هو تقديم مساعدة سنوية من القمح والسلاح والأموال للمساعدة على الجهاد ضدّ القشتاليين وقد استمرت العلاقات بعد ذلك على ما هي عليه من الدعم المتواصل للمملكة لمساعدتها على رد الهجمات النصرانية.

وفي عهد السلطان الحفصي أبي فارس أيضا فرّ السلطان النصري مُحَمَّد الآيسر (مُحَمَّد الثامن) بعد الانقلاب عليه سنة 831هـ/1437م إلى تونس حيث استقبله السلطان الحفصي وأكرمه ،

وهي المرة الأولى التي يلجأ فيها سلطان غرناطي إلى مملكة بني حفص ، وهذا يعيد إلى الأذهان استقبال مملكة غرناطة لأبي إسحاق أخ المستنصر الحفصي وحمايته ، ويرى البعض أن لجوء السلطان مُحَمَّد الثامن إلى إفريقية كونه متزوج من أميرة حفصية هي زهر الرياض بنت أبي السرور مفرج ، وقد ساعد أبو فارس السلطان النصري على العودة إلى غرناطة على رأس جيش صغير يضمّ خمسمائة جندي لاسترجاع ملكه.[5]

وفي عهد السلطان مُحَمَّد المنتصر خليفة أبي فارس فقد استمرت المساعدات والدعم المالي لمملكة غرناطة حيث خصّص إعانة وصدقة سنوية لأهل الأندلس لمساعدتهم على جهاد النصارى.

وعندما اشتدّ الضغط النصراني على مملكة غرناطة بعث السلطان النصري مُحَمَّد الحادي عشر قاضي الجماعة بغرناطة مُحَمَّد بن علي بن الأزرق إلى السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان لطلب النجدة والمساعدة إلا أن هذه السفارة لم تحقق ما أرسلت من أجله حيث ما إن وصل ذلك المبعوث إلى تونس حتى توفي السلطان أبو عمرو عثمان سنة 893هـ/1488م.

لقد كانت سياسة الدولة الحفصية اتجاه بني نصر مبنية على الدعم والمساعدة لنصرة المسلمين في الأندلس إلا أنّ هذه المساعدات لم تكن كافية لإنقاذ مملكة غرناطة خاصّة وأنّ الدولة الحفصية كانت هي الأخرى تعاني الضغط الخارجي والداخلي ، وبعد سقوط آخر معقل للمسلمين في الأندلس وفرار عدد كبير من الأندلسيين إلى إفريقية تعرضت هذه الأخيرة إلى هجمات الإسبان والبرتغاليين.

2 صور من التضامن والصراع بين المرنيين وبني نصر.

لقد شكل التضامن المريني النصري ميزة خاصة لسياسة بني مرين تجاه إخوانهم في الضفة المقابلة طيلة بقاء الإسلام في الاندلس ،و هذا التضامن فرضته الأخوة في العقيدة والأخوة في الهدف ، كما يعتبر هذا التضامن فريضة شرعية تحتم الوقوف صفا واحدا أمام

الاعتداء المسيحي الصليبي خاصة وأن مملكة غرناطة كانت تعيش ظروفا معقدة وصعبة ويحيط بها الأعداء من كل جانب ، هذه الظروف حتمت على المرينيين التضامن مع إخوانهم في العدوة الأخرى ، إضافة إلى أن بني مرين هم الأقرب جغرافيا إلى مملكة غرناطة وأن الخطر النصراني ليس بعيدا على أراضيهم ، فهو يمثل تهديدا مباشرا في أية لحظة ، وهذا ما أدركه مؤسس الدولة النصرية عندما نصح وأوصى ولي عهده بضرورة التحالف مع بني مرين في حالة ظهور خطر النصارى على المملكة.

هذا الوضع دفع بالسلطان مُحَمَّد الثاني الفقيه إلى الاستنجاد بالمرينيين حيث بعث برسالة إلى السلطان أبي يوسف يعقوب يدعوه إلى المشاركة في الجهاد ، فلبّى السلطان المريني هذه الدعوة ورد برسالة جوابية إلى السلطان مُحَمَّد الثاني تضمّنت رغبة بني مرين في التضامن ومساعدة مملكة غرناطة على ردّ العدوان النصراني ، فجاء العبور الأول إلى الأندلس ، إلا أن المرينيين تبيّن لهم عند نزولهم بالأندلس أنّ الخلافات الشخصية بين بني نصر وبني أشقيلولة حكام مالقة قد تؤدي إلى إضعاف الجهاد ، خاصّة وأنّ مُحَمَّد الثاني لم يشير في رسالته إلى المرينيين لهذه الخلافات ،[6] وهذا ما جعل بعض الخلافات تظهر بين المرينيين وبني نصر ، ورغم ذلك فقد خاض أبو يوسف يعقوب معركته الأولى بالأندلس معتمدا على قوته فقط ، وتمكن من تحقيق انتصارات كبيرة حتى وصل إلى أحواز قرطبة وبياسة ، وفي هذه المعارك انهزم الجيش القشتالي شمال غرب غرناطة وقتل قائدهم الدوق "نونيو" وذلك سنة 674هـ/1275م وعاد بعدها السلطان المريني إلى الجزيرة الخضراء ليتلقى التهاني وكان من أهم الوفود المهنئة السلطان النصري مُحَمَّد الثاني و هذا يمثل أرقى صور التضامن بغض النظر عن الأسباب التي ربما تكون وراء هذا الدعم المستمر . .

وقد شهدت هذه المرحلة فتور في العلاقات الا انها لم تصل الى درجة الصراع و المواجهة ، ويمكن اعتبارها سوء تفاهم حول بعض القضايا خاصة وانها لم تؤثر على رغبة المرنيين في تقديم الدعم ومواصلة الجهاد في الأندلس ، ومن أمثلة هذا الصراع هو عندما قام مُحَمَّد بن أشقيلولة بالعبور إلى المغرب بعد وفاة والده عبد الله سنة 676هـ/1277م وتنازل عن مالقة للسلطان المريني فبعث يعقوب بن عبد الحق ولده أبا زيان لاستلامها منه اصطدم بمحاولة مُحَمَّد الفقيه لاستعادتها إلا أنّه فشل في ذلك.

ومرة أخرى تجاوز الطرفين هذه الأزمة وقام السلطان المريني بالعبور الثاني الى الأندلس سنة 676هـ/1277م ونزل بمالقة وجرى لقاء بين مُحَمَّد الفقيه والسلطان المريني غلب عليه طابع اللوم والعتاب ورغم ذلك تمكن السلطان المريني من الوصول إلى الجزيرة الخضراء ورندة واتجه إلى إشبيلية وفتحها ثمّ أخذ في ترتيب قواته تمهيدا لغزو مدينة قرطبة ، وفي هذه الأثناء انضم السلطان الغرناطي مُحَمَّد الفقيه بجيشه إلى القوات المرينية وتمكن

الجيش المريني و الغرناطي من تحقيق انتصارات كبيرة دفعت بالملك القشتالي إلى طلب الصلح ، وحتى يُعبّر أبو يوسف يعقوب عن حسن نيته فقد ترك للسلطان الغرناطي مهمة إبرام المعاهدة مع ملك قشتالة ثم تنازل عن جميع الغنائم التي غنمها الجيش المريني في معركة قرطبة لصالح الجيش الغرناطي.[7]

إلا أنه و رغم ما تحقق من انتصارات فأن الخلافات وعدم التفاهم عاد من جديد ليطغى على العلاقات بين البلدين ،و ذلك عندما قام السلطان مُحَمَّد بن الأحمر بالاستلاء على مالقة التي ترك بها السلطان المريني ألف فارس حيث قام بشرائها من عمر بن يحي بن محلى عامل المرينيين عليها ، أمّا السبب الثاني الذي أدّى إلى تجدّد الخلاف هو تحالف مُحَمَّد الفقيه مع ملك قشتالة وملك أراغون لمنع السلطان المريني من العبور إلى الأندلس ، وفي الوقت نفسه اقترب من يغمراسن حاكم تلمسان وشجّعه على الإغارة على الحدود الشرقية للدولة المرينية لمنع السلطان المريني من العبور إلى الأندلس وتبادل الهدايا بينهما حيث أرسل يغمراسن إلى مُحَمَّد الفقيه هدية تمثلت في ثلاثين من الخيول العربية والثياب.

أمّا ابن الأحمر فبعث إلى يغمراسن مبلغا ماليا قدره عشرة ألاف دينار فلم يرض به يغمراسن ورده إليه ،[8] ومن خلال هذه التطورات يظهر أن ابن الأحمر كان يستغل الصراع التقليدي القائم بين المرينيين والزيانيين لخدمة مصالحه السياسية ،هذه التطورات و المواقف تبين ذلك الخوف وانعدام الثقة بين بني الأحمر و السلطان المريني رغم ما قدمته هذا الأخير من مساعدات لبني الأحمر ، إلا أن العلاقات بين البلدين عادت إلى طبيعتها الأولى عندما عبر السلطان المريني إلى الأندلس وكان ذلك سنة 684هـ/1285م وزحف على أراضي النصارى وغزا مدينة شريش بينما تمكن ولده أبو يعقوب من الاستلاء على إشبيلية وبعد هذا الانتصار بعث ابن الأحمر إلى السلطان المريني مددا من غرناطة حيث اشتركت البحرية الغرناطية إلى جانب القوات المرينية وتمكنت من تحرير الجزيرة الخضراء ، ولما رأى ملك قشتالة أنه يستحيل المقاومة طلب الصلح وبعث إلى السلطان المريني بوفد للتفاوض ، فاشترط عليه السلطان منع النصارى من الاعتداء على أراضي المسلمين وأن ترفع الضريبة عن التجار المسلمين ، فقبل النصارى بهذه الشروط وقدموا هدايا للسلطان المريني منها الكتب العربية التي استولى عليها النصارى والمقدرة بثلاثة عشر حملا والتي أرسلت إلى فاس.[9]

ومما يدل على رغبة بني الأحمر في مواصلة كسب الدعم المريني هو إسناد السلطان الغرناطي قيادة الغزاة والمتطوعين من المغرب إلى موسى بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق ، فكان أوّل من تولى هذا المنصب من قرابة المرينيين ، ولقد كان لشيوخ الغزاة من بني مرين دور هام في تاريخ العلاقات بين البلدين.

وبعد وفاة السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة 685هـ/1286م استمر السلطان الجديد يوسف بن يعقوب في دعم الجهاد في الأندلس فاجتمع بالسلطان الغرناطي في مربلة واتفقا على أن يحتفظ المرينيون بالجزيرة الخضراء وطريف وزندة ووادي آش وأحوازها.

ومرة أخرى تنكر ابن الأحمر للمساعدات المرينية وعاد إلى سياسة الخوف والتشكيك في نوايا المرينيين حيث اقترب من ملك قشتالة وعقد معه تحالفا ونقض ملك قشتالة الاتفاقية المبرمة مع سلطان المرينيين وتمكن من السيطرة على طريف وعدة حصون نصرية.[10]

وبسبب ما ترتب عن هذا التحالف من نتائج وخيمة على بني نصر أدرك السلطان الغرناطي خطأه في التحالف مع النصارى خاصة عندما رفض ملك قشتالة منحه طريف فعاد إلى طلب ودّ المرينيين فأرسل ابن عمه إلى السلطان المريني يوسف بن يعقوب ، ورغم ما قام به السلطان النصري من أعمال عدائية ضد المرينين ، إلا أن السلطان المريني لم يتردد في عقد الصلح وقبول الاعتذار وكان من نتائج هذا الصلح أن تنازل ابن الأحمر عن الجزيرة ورندة والاراضي الغربية وعدد من الحصون ، ومن جهة أخرى أرسل السلطان المريني حملة لغزو طريف ، واستمرت العلاقات بعد ذلك في هذا الاتجاه إلى غاية وفاة مُحَمَّد الفقيه سنة 701هـ/1301م ، ثم شهدت العلاقات بعد ذلك فتورا بين البلدين ، واقتصرت على المساعدات المالية ومما عكّر هذه العلاقات هو قيام السلطان النصري مُحَمَّد الثالث الملقب بالمخلوع بالسيطرة على سبتة والقبض على حاكمها ابن العزفي ، في الوقت الذي كان فيه السلطان المريني محاصرا لتلمسان ، وبعد وفاة السلطان أبي يعقوب تمكن خليفته أبو ثابت من استرجاع سبتة ، [11] وقد استمرت العلاقات بين المد والجزر إلى غاية اعتلاء عرش المرينيين أبو الحسن الّذي أبدى رغبة قوية في الجهاد ومساعدة إخوانه ضدّ ضغط النصارى خاصّة عندما انتقل مُحَمَّد الرابع النصري إلى العُدوة الأخرى سنة 732هـ/1231م وحل بالبلاط المريني وطلب العون والمساعدة واتفق الطرفان على استعادة جبل الفتح الذي يعتبر حلقة وصل بين العدوتين.

ولتحقيق ذلك جهّز السلطان المريني جيشا اسند قيادته لابنه أبي مالك وجهز أيضا مُحَمَّد بن إسماعيل جيشا واتجه به إلى مضيق جبل طارق وتمكن الطرفان من استعادة جبل الفتح من النصارى سنة 733هـ/1332م ، وبعد هذا النصر اتجه السلطان المريني إلى تلمسان وحاصرها ، و مرة أخرى أخذ السلطان المريني يستعد لمساعدة مملكة غرناطة رغبة منه في الجهاد فبدأ بتحصين الثغور بالأندلس وكان ينفق من أجل ذلك خمسين ألف دينار من الذهب شهريا ، [12] وفي الوقت نفسه أخذ السلطان يوسف الأول الذي خلفه أخوه مُحَمَّد الرابع يستعد لخوض الحرب خاصة وأن تحالفا صليبيا تشكل في هذا الوقت بين قشتالة واراغون ، هذه الظروف دفعت بأبي الحسن إلى تكليف ابنه الأمير أبي مالك بالدخول إلى دار الحرب

ومواصلة الجهاد ضد النصارى ،إلا أنه قتل من طرف النصارى وكان ذلك سنة 740هـ1339م. وفي هذه الأثناء عزم أبو الحسن على أخذ الثأر لمقتل ابنه فسار إلى الأندلس سنة 741هـ/1340م ونزل بسهل طريف ولحق به السلطان يوسف النصري في قوات أندلسية ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة هامة انتهت بهزيمة الجيش الإسلامي وعاد أبو الحسن إلى المغرب ، وعاد السلطان يوسف الأول إلى غرناطة ، ورغم هذه الهزيمة إلا أن الدعم المغربي تواصل فقد كان السلطان ابو الحسن يجهّز في كل سنة أسطولا لمساعدة الأندلسيين وفي الوقت نفسه يجهز الغزاة ويرسل الهدايا والأموال.

بالإضافة إلى هذه المساعدات قام المرينيون بتحصين جبل طارق وأحاطوا به سور من كل جانب ووفر السلطان أبو الحسن كل أسباب الرخاء والمعيشة في جبل الفتح حيث انتعشت الحياة الاقتصادية وساد الأمن والاستقرار ، [13]وهكذا فقد تميزت فترة أبي الحسن بتقديم الدعم والتضامن الكامل مع مملكة غرناطة.

وعند تولية السلطان أبي عنان فارس سنة 749هـ/1348م بدأت مرحلة جديدة من العلاقات الطيبة بين السلطان يوسف الأول والسلطان أبي عنان بنيت على التفاهم والتضامن فقد أرسل يوسف الأول وزيره لسان الدين بن الخطيب إلى السلطان المغربي معزيا بوفاة والده ومهنئا له بتوليه الحكم ثم استمرت المراسلات بين غرناطة وفاس منها رسائل التهنئة ورسائل الشفاعة كما هو الحال سنة 754هـ/1353م عندما بعث السلطان يوسف الأول برسالة إلى أبي عنان يعرض الشفاعة والعفو عن الفقيه ابن مرزوق التلمساني.

لقد كانت الصراعات السياسية أحد الأسباب التي أدّت إلى تدهور العلاقات بين الدولتين ومنها لجوء الأميرين المرينيين أبو الفضل وأبو سالم إلى الأندلس فاستقبلهما السلطان يوسف الأول واكرم مقامهما كإخوة لسلطان المغرب ، إلا أن ابا عنان بعث برسالة إلى السلطان النصري يطلب منه أن يرسل أبا الفضل وأبا سالم فرفض السلطان أبو الحجاج يوسف هذا الطلب ، وبعد خروج أبي الفضل من غرناطة ولجوئه إلى ملك قشتالة عادت المراسلات بين غرناطة وفاس حيث اعتذر السلطان النصري لأبي عنان كما بعث له برسالة أخرى يهنئه بالانتصار على أبي الفضل والقضاء على فتنته.

وبما أن السلطان الغرناطي كان قد لعب دورا حاسما في وصول أبي سالم إلى عرش المرينيين بعد وفاة أبي عنان ، لذلك عندما تعرض مُحَمَّد الخامس إلى مؤامرة انقلاب سنة 760هـ/1358م من طرف أخيه أبي الوليد إسماعيل بن يوسف فر الغني بالله مع وزيره ابن الخطيب إلى المغرب فخرج السلطان أبو سالم لاستقباله واحتفل بقدومه.[14]

وعندما عاد السلطان مُحَمَّد الخامس إلى ملكه بغرناطة بمساعدة مملكة قشتالة تجددت الخلافات السياسية بين الدولة المرينية والنصرية خاصة عندما فر وزير السلطان النصري

لسان الدين بن الخطيب إلى الدولة المرينية واستقبله السلطان عبد العزيز ، مما دفع بالسلطان الغرناطي مُحَمَّد الخامس إلى إرسال رسالة مع الهدايا إلى السلطان المريني يطلب فيها تسليم الوزير ابن الخطيب لكن السلطان رفض ورد عليه بقوله:" هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ، وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جواري".[15]

وبعد وفاة السلطان عبد العزيز استغل مُحَمَّد الخامس الوضع السياسي المضطرب في المغرب وألغى منصب شيخ الغزاة وبدأ يتدخل في أمور الدولة المرينية ، وبالتالي ساهم في زعزعت استقرارها خاصة عندما استخدم عبد الرحمن بن يفلوسن أحد الطامعين في الوصول إلى السلطة المرينية وبمساعدة حاكم سبتة مُحَمَّد بن عثمان للتحريض على خلع طاعة السلطان المريني السعيد وتولية أبا العباس أحمد بن أبي سالم وفعلا تمكّن هذا الأخير من الاستيلاء على فاس سنة 776هـ/1374م.

وبذلك تمكّن سلطان غرناطة من السيطرة على الأوضاع السياسية في الدولة المرينية ، ومن أهم نتائج هذا التدخل هو إلقاء القبض على لسان الدين بن الخطيب ومحاكمته ، وقد قتل في السجن خنقا وأحرق بعد موته وذلك سنة 776هـ/1374م.[16]

ورغم الخلافات العديدة والتدخل الغرناطي في شؤون الدولة المرينية خاصة في عهد السلطان مُحَمَّد الخامس إلا أن العلاقات بصفة عامّة تميزت بالاستقرار والاحترام المتبادل وما يدل على ذلك هي تلك المراسلات والسفارات العديدة بين البلدين والتي تنوعت بين طلب المساعدة أو طلب الإقامة كما هو الحال للسفير المريني أبي عبد الله المقري الذي بعثه أبو عنان إلى غرناطة سنة 755هـ/1354م والّذي فضّل الإقامة بالأندلس فأرسل السلطان يوسف الأول رسالة إلى أبي عنان للشفاعة للمقري ، كما أرسل السلطان النصري إلى سلطان بني مرين رسالة يشفع فيها للفقيه أبي عبد الله بن مرزوق ،ويطلب من السلطان السماح له بمغادرة المغرب والانتقال إلى الأندلس وقد نجح السلطان الغرناطي في هذا المسعى حيث سمح لعائلة الفقيه بالانتقال إلى الأندلس ، ولم تقتصر الاتصالات بالمراسلات فحسب بل تعدت إلى الزيارات المتبادلة فالسلطان مُحَمَّد الفقيه زار طنجة سنة 693هـ/1293م كما زار السلطان مُحَمَّد الرابع المغرب سنة 732هـ/1331م.

أمّا سلاطين بني مرين فقد تعدّدت زيارتهم للأندلس وكان معظمها من أجل الجهاد ، ومما لا شك فيه ورغم أن مواقف بني نصر كانت متذبذبة تجاه المرينيين فإن المساعدات المرينية كان لها الأثر البارز في استمرار الدولة النصرية ووقوفها ضدّ القوى النصرانية ، ومن جهة أخرى فإن سياسة بعض سلاطين بني الأحمر قد ساهمت في إضعاف الدولة المرينية ، هذا الضعف كانت له نتائج سياسية على الدولة النصرية نفسها ، إذ فقدت ذلك التضامن والسند القوي المتمثل في جهاد المرينيين ضدّ النصارى ، ولم تستغل تلك الجهود الكبيرة

التي بذلها سلاطين بني مرين وذلك الدعم العسكري المتواصل لينتهي بها الأمر إلى السقوط سنة 898هـ/ 1492م ونهاية الوجود الإسلامي في الأندلس.

3 التضامن الزياني النصري :

لقد تزامن قيام دولة بني نصر في الأندلس مع قيام دولة بني عبد الواد بتلمسان على يد يغمراسن بن زيان ورغم قرب المسافة بين البلدين إلا أنّ العلاقات السياسية لم تتوطّد إلا بعد موت مُحَمَّد الأول مؤسس الدولة النصرية ،وربما يرجع هذا التباعد إلى انشغال مُحَمَّد الأول بتثبيت أركان دولته خاصّة وأنّها قامت في وقت اشتدّت فيه ضربات النصارى وتعددت الثورات المناهضة له ، كما أن هذا السلطان المؤسس كان يميل في سياسته إلى بني مرين أكثر من الزيانيين ، ولهذا جاءت نصيحته لولي عهده بالتقرب وطلب المدد من السلطان المريني.

وفي عهد السلطان مُحَمَّد الفقيه بدأت الاتصالات السياسية بين البلدين ، ويرجع هذا التقارب إلى خوف مُحَمَّد الفقيه من النفوذ المريني ،خاصة وأن ما حدث للمعتمد بن عباد مع يوسف بن تاشفين في عهد المرابطين ليس بعيدا عنه ، لذلك اتجه إلى يغمراسن للتخلص من ذلك النفوذ ، فبدأت المراسلات وتبادل الهدايا بين الدولتين ومن ذلك هدية بعث بها يغمراسن إلى السلطان النصري تمثلت في مجموعة من الخيول والثياب ، وبالمقابل بعث مُحَمَّد الفقيه بهدية إلى يغمراسن تمثلت في مبلغ من المال قدره عشرة آلاف دينار إلا أنها لم تعجب السلطان يغمراسن فردّها إليه ،[17] وكانت مطالب بني الأحمر تتمثل في ضرورة تعاون بني عبد الواد معهم لضرب قوة المرينيين بالمغرب ،واتفقا الطرفان على أن يهاجم يغمراسن الحدود الشرقية للدولة المرينية وإشغالهم عن العبور والجهاد في الأندلس ، وفعلا فقد دخل يغمراسن في صراع مع المرينيين ودارت معارك كثيرة على الحدود بالرغم من طلب يعقوب المريني الصلح ومما قاله ليغمراسن:" إلى متى يا يغمراسن هذا النفور والتمادي في الغرور؟ أما آن أن تنشرح الصدور وتنقضي هذه الشرور؟" إلا أنّ يغمراسن رفض الصلح ،ورد عليه بقولة " ليس له عندي إلا الحرب " وخرج يعقوب لقتال يغمراسن وانتهى هذا الصراع بهزيمة يغمراسن وغنم المرينيون أموالا كثيرة.[18] وقد أشارت العديد من الرسائل إلى هذا التحالف الزياني النصري ومنها الرسالة التي كتبها ابن خطاب إلى السلطان النصري والمؤرخة في شوال 678هـ/ماي1280 م وفي هذه الرسالة يخبر عن وصول مبعوث نصري إلى تلمسان ، هذا التقارب بين الأندلس وتلمسان ربما جعل يغمراسن يصدر ظهيرا يسمح للمهاجرين الأندلسيين بالاستقرار بتلمسان.

وقد استمر هذا التضامن حتى بعد وفاة يغمراسن بن زيان وتولي أبو سعيد عثمان الإمارة سنة 681هـ/1283م ويظهر ذلك من خلال رسالتين بعثهما أبي سعيد عثمان إلى السلطان النصري جوابا عن رسالة تعزية كان قد بعثها السلطان النصري إلى الأمير الزياني

وفي هذه الرسالة يقول أبو سعيد عثمان:"...فإنه وصل كتابكم يتضح بيانا ويجلو مصافاتكم صورا حسانا ، وعزيتم في المولى الوالد."..إلى أن يقول.... "ولئن كنتم فقدتم محل والد لقد أبقى لكم منا محل أخ معاضد في كافة الأحوال مساعد يقاسمكم في المر والحلو..." [19] ، وهذا ما يؤكد رغبة السلطان الزياني أبو سعيد عثمان في تمديد التحالف والتعاون مع حكام بني نصر بعد وفاة والده.

وفي عهد أبي حمو موسى الثاني تجددت المراسلات بين البلدين وتجدد التضامن وتقديم الدعم المادي ، ففي سنة 763هـ/1361م أرسل السلطان مُحَمَّد الخامس برسالة إلى السلطان الزياني يطلب منه التضامن ومساعدة مسلمي الأندلس على مواجهة النصارى فأمدهم أبو حمو الثاني بخمسين قدحا من الزرع وثلاثة آلاف دينار ذهبي ، ثم توالى الدعم الزياني لمملكة غرناطة مما شجعهم على الصمود كما وجّه السلطان أبو عبدالله الغني بالله نداء إلى السلطان الزياني لنصرة الأندلسيين وهي عبارة عن قصيدة للفقيه أبي البركات مُحَمَّد بن إبراهيم البلفيقي جاء فيها:

هل من مجيبٍ دعوة المستنجد أم مـن هجيرٍ للغريب المـفرد
هل من وليّ ناصرٍ دين الهدى أو ذي حمىً يحمي حنيفة أحمد [20]

كما بعث لسان الدين بن الخطيب برسالة لسلطان تلمسان أبي حمو موسى الثاني ومع هذه الرسالة قصيدة سينية يعبر عن شكره للمساعدات التي كان يقدمها للأندلس ومنها:

أنتَ الذي افتك الـسفين وأهلـــهُ إذ أسعت سبـــــل الخـــلاص
أنتَ الذ أمددتَ ثغر الله بالصـــا ي دقــات تُبلسُ كرة إبليـــسَا
وأعنتَ أندلـــــسا بكل سبيكةٍ مرسومة لا تعرف التدنيـــــسَا [21]

وقد استمر أبو حمو في تقديم المعونة لأهل الأندلس حيث خصص لهم مساعدة سنوية ، وبفضل هذا الدعم حققت مملكة غرناطة انتصارات على النصارى ومن ذلك تحرير الجزيرة الخضراء وقد عبر لسان الدين بن الخطيب على تلك المساعدات في قصيدة يشكر فيها أبا حمو موسى الزياني على تضامنه الكبير مع مسلمي الأندلس إذ يقول فيها:

لقد زار الجزيـــرةَ منك بحرُ يَمدُ فليـس نعرف منه جزرَا
أعددت لها بعهدك عهد موسى سميـــك فهي تتلو منه ذكرَا
أقمـــت جدارها وأفددت كنزا ولو شئت اتخذت عليه أجرَا

وقد استمر التضامن الزياني مع بني نصر على ما كان عليه من الدعم المتواصل إلى غاية بداية القرن التاسع الهجري حيث ظهر بعض الفتور في العلاقات وتوقفت المراسلات وربما يرجع هذا التراجع إلى ظروف البلدين فالدولة الزيانية أصابها الضعف بسبب الصراعات الكثيرة ولم تعد قادرة على تلبية مطالب أهل الأندلس خاصة مع اشتداد العدوان الصليبي

على مملكة غرناطة ، ورغم هذه الظروف فقد رحل الفقيه ابن الأزرق إلى تلمسان وتونس لطلب النجدة عندما غلب العدو على ما بقي للمسلمين في الأندلس.

وبصفة عامّة فإن العلاقات السياسية بين بني نصر والدولة الزيانية كانت متميزة ولم تحدث خلافات أو صراعات بينهما ونظرا لهذا التميز فقد حرص سلاطين بنو زيان على الاستقبال الجيد للمهاجرين الأندلسيين ومنحهم حق الإقامة في المدن التي يريدون الاستقرار بها.

إلا أن التضامن والدعم الزياني النصري لم تصل إلى ما وصلت إليه العلاقات المرينية النصرية لأن الدعم الزياني اقتصر على المساعدات المادية ولم يصل إلى القيام بحملات عسكرية والعبور إلى الأندلس وربما يرجع هذا إلى انشغالهم بالصراعات مع المرينيين والحفصيين ومع بعض القبائل الأخرى.

لقد كان للسفارة دور كبير في تمتين العلاقات السياسية بين الأندلس وبلاد المغرب وعادة ما كانت تسند هذه المهمة للعلماء ويرجع اختيار العلماء بالدرجة الأولى إلى قدرة هؤلاء على التحاور والتخاطب ، إضافة إلى حرصهم الدائم على الإصلاح وتوحيد المسلمين ، وقد مثل ابن الخطيب أهم نموذج للسفارة بين الأندلس وبلاد المغرب ، وكانت هذه السفرات تحقق نجاحا في أغلب الأوقات وتنتهي بالحصول على المساعدات لأهل الأندلس.

كما كان للسفارة دور كبير في توثيق العلاقات بين الحكام من جهة أو بين الحكام والعلماء من جهة أخرى خاصة وأن بعض الحكام اشتهروا بحبهم للعلم والعلماء ، كما كانت السفارة وسيلة للقاء الشيوخ والأخذ عنهم فابن خلدون يقول عكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب ومن أهل الأندلس الوافدين في عرض السفارة وحصلت من الإفادة منهم ، كما كانت هذه السفارة أحد الأسباب الرئيسية في ربط علاقة ود وصداقة بين العلماء والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها العلاقة بين ابن الخطيب وابن مرزوق أو بين ابن الخطيب وابن خلدون.

لقد كانت للمراسلات والسفارة دور كبير في توثيق الصلات بين الأندلس وبلاد المغرب وبالتالي توطيد العلاقات السياسية التي ساهمت في خلق جوّ من التضامن والتعاون بين دول المغرب الإسلامي رغم ما تخلل هذه المرحلة من سوء التفاهم و عدم الرضى على الدعم المقدم الى أهل الاندلس ، وان كانت اثار هذا الصراع لم تصل الى درجة القطيعة بين البلدين ، ومن جهة أخرى فإن هذا التضامن لم يكن كافيا لإنقاذ الاندلس من السقوط ولكنه اخره لبعض الوقت ..

الهوامش:

1ـ عبد الرحمان ابن خلدون ،كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ،ج6 دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت 2000م ص325.- ابن الابار أبو عبد الله القضاعي ، الحلة السراء ج1 ،تح حسين مؤنس ،دار المعارف القاهرة 1983م ص 35...

2 ـ برنشفيك روبار ،تاريخ افريقية في العهد الحفصيمن القرن 13م الى القرن 15م ،ترجمة حمادي الساحلي ج1 دار الغرب الإسلامي بيروت ط 1 ص62.

3ـ ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس ،الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ،تح مُحَمَّد الشاذلي النيفر و عبد المجيد التركي ،الدار التنوسية للنشر تونس 1968 م ص118 .

4ـ ابن خلدون ، العبر ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 346. .

5 ـ برنشفيك ، المرجع السابق ، ص 259.

6 ـ ابن ابي زرع الفاسي ، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ،دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط 1972م ص 142.

7 ـ أبو العباس الناصري ، الاستقصا لدول المغرب الأقصى ،ج3 دار لكتاب الدار البيضاء ، 1954 م ص 48.

8 ـ ابن خلدون ، العبر ، ج7 ،المصدر السابق ص 266- يوسف شكري فرحات ،غرناطة في ظل بني الأحمر ،ط1 ،دار الجبل بيروت 1993م ص 27.. ، ص

9 ـ عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الاندلس ، ج4 مكتبة العانجي القاهرة 1997م ص 106.

10 ـ ابن الخطيب ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، تج ، محي الدين الخطيب ، المطبعة السلفية القاهرة ص 42.

11 ـ ابن ابي زرع الفاسي ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس ،دار المنصور للطباعة و الوراقة الرباط 1972م ص 388- عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ص 114..

12ـ ابن مرزوق أبو عبد الله مُحَمَّد المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا ابي الحسن ،تح ماريا خيسوس بيفيرا ،الطباعة الشعبية للجيش الجزائر 2007 م ص 391.

13 ابن مرزوق ، المسند ، نفسه ، ص 392.

14ـ لسان الدين بن الخطيب الإحاطة في اخبار غرناطة ،تح مُحَمَّد عبد الله عنان ،ج 2 مكتبة الغانجي القاهرة ،ص 27 .

15 ـ ابن خلدون ، العبر ، المصدر السابق ج7 ، ص 445.

16ـ ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص08- ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، ص 453

17 ـ ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، ص267- ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب ، المصدر السابق ، ص 335.

18 ـ الناصري ، الإستقصا ،المصدر السابق ج3 ، ص54- ابن خلدون ، العبر ، المصدر السابق ج7 ، ص 270- ابن أبي زرع ، الأنيس ، ص336

19 ـ أحمد عزاوي ، المغرب والأندلس في القرن السابع ، دراسة وتحقيق لديوانيات كتاب فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر ابن خطاب ،مطبعة ربانيت ، المغرب 2008م ، ص163 .

20 ـ يحي بن خلدون ،بغية الواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ج2 ،تح عبد الحميد حاجيات ،عالم المعرفة للنشر و التوزيع الجزائر 2011 م ص 167.

21 المقري أبو العباس ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،تح ،احسان عباس ،ج1 دار صادر بيروت ج6 ، ص199